العلمانية

يروى تشرشل فى مذكراته ، أنه اجتمع مع روزفلت رئيس الولايات المتحدة ولتفينوف ، سفير الاتحاد السوفييتى فى واشنطن ليضعوا إعلان الأمم المتحدة الذى نشر فى أول يناير سنة ١٩٤٢ ، فاعترض السفير السوفيتى على عبارة « الحرية الدينية » التى وردت فى المشروع ، فانبرى له روزفلت وألقى محاضرة طويلة : عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فأغرقه فى بحر طام من العلم اللاهوتى ، فلم ير السفير بداً من أن يسحب معارضته نجاة بنفسه من موجة أخرى من التلقين الدينى .

ويقول تشرشل إنه مازح روزفلت قائلا له : لقد كنت مشفقاً عليك من نتائج انتخابات الدورة الثانية لرياستك ، أما الآن فلا خوف عليك ، إذ لو لم يعد الأمريكيون انتخابك ، فسيكون البريطانيون سعداء إذا قبلت أن تعين كبيراً للأساقفة فى بلادهم ، فبلاغتك فى الوعظ ، وعلمك بالدين يؤهلانك لذلك .

وهذه القصة الصغيرة على طرافتها ، تتضمن من المعانى ما يحسن سوقه للذين يؤمنون « بعلمانية الدولة » . فماذا تكون هذه العلمانية أولا ؟

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينياً أو كهنوتياً ، ولعله مشتق من لفظ « العالم » ، وترجع أصول العلمانية إلى ردود الفعل لثورة مارتن لوثر فى سنة ١٥٢٠ على البابا وانتقاده العنيف إياه لبيع صكوك الغفران للعصاة والخاطئين من المسيحيين مقابل مال كثير يدفع للبابا ، فيضمن لهم دخول الجنة ، ولسخط لوثر على عبادة القديسين ودعوته إلى العمل بالكتاب المقدس وحده ، ولم تلق هذه الدعوة أول

الأمر استجابة ذات شأن ؛ ولكن لما أخذ أتباع لوثر يكثرون سلطت عليهم الكنيسة والأمراء الذين انحازوا لها مايصفه جوستاف لوبون بقوله : أبيد الشيوخ والنساء والأطفال ؛ وصار رئيس برلمان « إكس » البارون « دوبين » مثالا يحتذى لقتله فى عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدمير ثلاث مدن ، واثنتين وعشرين قرية . بعد هذه المجازر انتهى الرأى السياسى إلى تجريد الدولة من كل نشاط دينى ؛ وإبعاد الخدمات الدينية عن نطاق إشرافها وتوجيهها ،وعدم تحميل ميزانية الدولة شيئاً من نفقات الكنائس والأديرة ، وتحريم التعليم الدينى فى المدارس والمعاهد الحكومية .

فهل كفت الدول — لاسيما فى غرب أوربا — حقًّا عن النشاط الدينى ، وغسلت يديها منه . يهمنا فى الإجابة عن هذا السؤال الجانب الخارجى من نشاط الدول « العلمانية » فالثابت من تاريخ الاستعمار الأوربى الغربى فى آسيا وإفريقيا أن هذه الدول اتخذت من الدين وسيلة لتسويغ استعمارها ولنهب أرزاق أهل المستعمرات ، وحرمانهم من ثقافتهم الوطنية ، ومن نفض نير الاستعمار عن أعناقهم .

وإذا أردنا أن نضرب الأمثلة على زيف هذه « العلمانية » وكذبها ، تزاحمت بين أيدينا الأمثلة ، حتى لاندرى أيها نأخذ وأيها ندع ، ولكن أحسب أن ما جرى فى الجزائر — فضلا عن اتصاله بنا ، لوقوعها فى محيطنا العربى والإسلامى نموذج صارخ لعلمانية الغرب ، وسننقل المثل التالى من كتاب الكاتبين الفرنسيين كوليت وفرانسيس جانسون المعنون : « الجزائر خارج القانون » قالا :

« لعل العبث بالدين الإسلامى كان هو المجال المفضل لدى القائد « روفيجو » ليعيث فيه فساداً واستهتاراً ، فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد فى مدينة الجزائر ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين ، وطلب من أعوانه إعداد ذلك فى أقرب وقت ممكن ، وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه كما قال أجمل جوامع

الجزائر طرازاً. وحدد يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل. وفى الموعد المحدد تقدمت بطاريات الجيش تزحف إلى المسجد، فإذا بداخله أربعة آلاف مسلم اعتصموا به خلف المتاريس، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكى . . . »، ثم وضع فى هذه الكاتدرائية منبراً كان يعرف فى الجزائر بأنه « منبر الرسول » وهو آية فى النقش العربى، وعلى هذا المنبر وقف الحاكم « موجو » يقول: إن آخر أيام الإسلام قد دنت؛ وفى خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ».

وهو بطبيعة الحال غير المسيح الذى يؤمن به المسلمون، كما أمرهم بذلك دينهم. ولا هو المسيح الناصرى الذى قال للناس: أحبوا أعداءكم؛ باركوا لأعينيكم .. إلخ »؛ ونحمد الله إذ أعفى الجنرال ديجول، بلاده فرنسا، موطن الثورة، والإنسانية من هذه الوصمة الكاذبة. فلنر، فى الجانب الآخر. كيف حقق الإسلام كل ما عقد على « العلمانية » من آمال لم تتحقق لا فى داخل الدول ولا خارجها.

أولا – ليس فى الإسلام هيئة ولا طبقة تحترف صناعة الدين، أو تستأثر بشرح أحكامه، فكل مسلم مدعو لقراءة الدين والتفقه فيه، وله الحرية فى أن يفهم ما يشاء ما دام يفهم لنفسه، وله أن يستعين بمن هم أرسخ منه قدماً فى اللغة، وأقدر منه لثقافتهم وعلمهم ليأخذوا بيده، فليست تلاوة القرآن حكراً لأحد، ولا هى ممنوعة عن أحد، بل إنها مستحبة كلما تيسرت للإنسان. والإنسان يصلى وحده بلا رقيب ولا موجه، وإذا اجتمع المسلمون، تقدم أحدهم فأمهم ما دام يعرف أصول الصلاة، ولو كان أشعث أغبر لا يؤبه له.

وفى هذا المعنى يقول الشيخ شلتوت: قد اتصلت بالقرآن، بعد أن التحق الرسول بربه، أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نص فى معنى واحد، وكثرت الآراء والمذاهب فى النظريات والعمليات،

لا على أنها دين يلزم وإنما هى آراء وأفهام » .

ثانياً — عبادة المسلمين وصلاتهم جائزة فى كل شبر من كل أرض ؛ فالله تعالى قال : (فأينما تولوا فثم وجه الله) . وقال الرسول عليه أفضل السلام « . . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

ثالثاً — ونبى المسلمين ورسول الله إليهم بشر مثلهم : يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وكان له كل نشاط الآدميين ، فتزوج وأنجب . وصام وأفطر وحارب وسالم وعاهد ، وعرف اليتم والثكل ، ماتت له زوجات وبنات وبنون ، وأكد القرآن والحديث بشريته ، ووصفه القرآن بأنه عبد الله ، وقال عن نفسه « إنه عبد يأكل كما يأكل العبد ، ويجلس كما يجلس العبد » فى القرآن : (سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً) ، وفيه (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) ، وفى الحديث : « لست ملكاً ولا جباراً . إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة » .

والرسل جميعاً — عند الإسلام — ليسوا إلا مبلغين لرسالات الله ووظيفتهم الإرشاد والتعليم عن طريق الوحى ، وفى علماء المسلمين من يقول إن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يجوز عليه من الخطأ والصواب — عدا ما خصه الله به — ما يجوز على أى فرد من البشر .

رابعاً — الأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بأمر الله ، فى نص من القرآن أو نص من الحديث قطعى الورود ، فالإباحة والتحريم من حقوق الله وحده ، ولا يشاركه فى ذلك شريك من رسول أو خليفة ، أو هيئة ، أو جماعة أو طبقة أو فئة . وبالتالى لا يوجد من يغفر الذنوب إلا الله ، وكل مسئول عن عمله لا تنفع أحداً عند الله قرابة حتى للرسول الكريم ، فقد قال عليه السلام : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا » وقال : « لو سرقت فاطمة بنته — رضى الله عنها — لقطعت يدها » .

وأخيراً يساوى الإسلام بين رسل الله جميعاً ، وأديانهم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) .

وقد أمر الإسلام المسلمين أن يعاشروا أهل الكتاب بالحسنى ، وأن يأكلوا طعامهم ، ويتزوجوا نساءهم ، كما أمرهم : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) .

وقد نشأ من كل ذلك جو من حرية الرأى والإخاء الإنسانى ، والتعاون الأخوى ، أتاح للمسلمين وإخوانهم من أهل الكتاب مسيحيين ويهود ، أن يتعاونوا فى إنشاء حضارة إنسانية ، بقى التسامح وكراهية القسر والعنف ، طابعها المميز حتى فى أدوار انحلالها ، وقد روى مصطفى كامل فى كتابه الشهير « المسألة الشرقية » أنه لما فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان التركى ، وانتخب المسيحيون الروم بطريركاً قال له السلطان محمد : « كن بطريركاً لليونان والله يحميك ، وفى كل الأحوال والظروف اعتمد على مساعدتى وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل » .

فهل علمانية كائنة ما كانت قادرة على أن تحقق هذا أو شيئاً قريباً منه ؟

obeikandi.com